الأنوار

بيروت - الاثنين ١٣ كانون الثاني ٢٠٠٣ -

حرية المعرفة ومعرفة الحرية

بقلم نابغة ذبيان

لماذا الصراع الدائم من اجل الحرية ؟ ... اي حرية نبغي ؟ هل مفهوم الحرية هو الذي يختلف من شخص لآخر، ام ان الاختلاف في الممارسة ؟

حرية الانسان كيف تكتسب ... وهل من وسيلة عملية اليها ؟!

بين التقاليد المرعية والتجديد، حرية نولد من رحمها، وحرية نصنع نحن مهدها ...

اذ في التقاليد نرث الحرية تبعاً للمحيط الذي نولد فيه ... اما في التجديد فنحن نخلق الحرية تبعاً للوعي الذي نحيا فيه ...

عبر التقليد المتوارث، يتنعّم انسان الدول الراقية بالحرية، في حين تضيق الحريات عن انسان دول العالم الثالث. وكأن الحرية سمة مرور او هوية تعطى للانسان وهو لا يزال طفلاً، حتى اذا ما كبر تنعّم البعض بالحرية، وعاش البعض الآخر بالعبودية ! فكيف يتطابق هذا المفهوم التقليدي للحرية مع الحكمة القديمة المتوارثة: «الحرية لا تعطى بل تؤخذ غصباً» ؟!

لذا نسأل، هل فعلاً هي «الحرية» التي يتمتع بها انسان الغرب ؟ وهل حقاً هو الحرمان من الحرية الذي يتخبط فيه بعض شعوب الشرق ؟! وهل في تطبيقنا لحرية الغرب سنصل الى الحرية الحقيقية ؟! يستذكرني في هذه المناسبة قول الخليفة عمر بن الخطاب «كيف ترضون بالعبودية وقد ولدتكم امهاتكم احراراً ؟!»

الحرية انفتاح، الحرية صفاء، الحرية سلام، الحرية محبة وتصرف بمحبة ! فأين انسان الغرب الآلي من المعنى الحقيقي للحرية ؟!

الحرية ابداع ذاتي وليست اقتباساً ... الحرية ان نقبل الآخر كما هو. الحرية كفاح ونضال وليست انتقاماً ولا بكاء على الاطلال ... الحرية مسؤولية والتزام وتصارع افكار، لا يتحقق بالسير في التظاهرات وترديد الشعارات. الحرية نور داخلي ان عرفنا كيف نضيئه اطفأنا ظلمات انفسنا وحملناها مشاعل وعي تنير دروب الآخرين ... فلمَ نتطلع نحن العرب الشرقيون الى الغرب؟! ولدينا كنوز المعرفة الانسانية التي من خلالها فقط سنحقق حريتنا وسنعلم الغرب حقيقة الحرية وكيفية اكتسابها ... مثلما علمناهم الكثير في العصور الغابرة .

علوم الايزوتيريك هي علوم الترقي بانسانية الانسان، هي قديمة قدم الانسان، ومعرفتها متجددة عبر العصور كرسالة انسانية ... فتغني الانسان عبر التاريخ بحرية المعرفة، نازعة عنه قيود الجهل، انطلقت اصلاً من الشرق الاقصى، لتتجسد في حضارات بلاد ما بين النهرين، ثم في مصر الفرعونية، فاليونان القديمة انطلاقاً الى اقاصي المعمورة ... منذ انشائها [redacted] اول واشهر مدرسة ايزوتيريكية اغريقية في القرن السادس ق. م.، هي مدرسة «كروتونا» التي اسسها العالم والفيلسوف الكبير فيثاغوراس. ايضاً، كان الغنوطسيون (Gnostics) والاسينيون من اصحاب هذه المعرفة، التي اقتصرت في تلك الازمان على النبلاء والاشراف ونخبة المجتمع من ذوي الفكر المستنير. اما اليوم، للمرة الاولى في تاريخ اللغة العربية وتجديداً في لبنان، ومنذ عقدين من الزمان، تقدم علوم الايزوتيريك المعرفة الانسانية المعرفة العلمية التطبيقية لكل مريد، لانها تخاطب مختلف مستويات الوعي من خلال مؤلفاتها التي ناهزت الاثنين والثلاثين كتاباً لغاية تاريخه (منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء). تكشف علوم الايزوتيريك من خلال هذه المؤلفات تقنية «إعرف نفسك» بمنهج تطبيقي عملاني وحياتي، اذ «وعي المعرفة هو هدف الايزوتيريك لان وعي المعرفة، اي تطبيقها عملياً، هو الحرية بمداها الكبير» (كتاب محاضرات في الايزوتيريك - الجزء الثاني) .

وعي المعرفة هو الحرية بمداها الكبير، حيث الانسان هو محور الوعي وحيث دائرة وعيه تحدد مدى مفهومه للحرية. فان كان المفهوم العام للحرية يفترض بأن المجرم ليس حراً لانه سجين القضبان، والمرأة مقيدة بتقاليد المجتمعات المتزمتة بينما الرجل حر بهويته الذكورية، الى ما هنالك من مفاهيم تطلق باسم الحرية والعبودية، فنجيب من منطلق وعي الحرية، بأن المجرم سجين جرمه ان كان وراء القضبان او خارجها، فأينما وجد ستبقى فعلته الشنيعة اصفاداً تكبّل حريته. اما في ما يخص المرأة والرجل، فالمرأة اسيرة ضعفها الفكري، وتخبطها بأغلال المشاعر، والرجل طليق غطرسته وتسلطه في هذا الاطار، يخبرنا كتاب «المرأة والرجل في مفهوم الايزوتيريك»، «منذ بضعة آلاف من الاعوام ونحن نشهد ما يسمى «بعصر الرجل». فالرجل هو السيد في كل مجال، سواء على صعيد الحكم او القانون او العلوم، في المجتمعات والمؤسسات، وفي العلاقات البشرية وحتى في العلاقات العائلية والزوجية الخاصة. هو السيد المطلق. يأمر وينهي، في يده الحل والربط متى شاء وكيفما اراد فيما المرأة كانت دوماً المأمورة، تنفذ مشيئة الرجل. لم تكن تسعى الى تحصيل العلم، ولا الى العمل جنباً الى جنب مع الرجل. لم تحاول التمرد او الثورة على هذا الواقع الجائر. يبدو انها كانت مسرورة آنذاك بواقعها، او على الاقل راضية به .. لذا، فان واجب المرأة سيكون في النضال والكفاح من اجل استعادة مركزها اللائق ومكانتها الشرعية في الحياة. وحين يقف الرجل الى جانب المرأة على قدم المساواة في جميع النواحي، وحين تقف المرأة الى جانب الرجل على قدم المساواة في جميع النواحي، سيباشران التقدم معاً على مسار الوعي الذاتي والوعي العام.

مهما اختلفت المظاهر الاجتماعية للحرية والعبودية، فما هي الا نتائج ظاهرية لاسباب داخلية باطنية، ولن يستطيع الانسان التوصل الى نتائج ايجابية في حياته ما لم ينفتح فكرياً على الابعاد الباطنية الموجودة في داخله، وما لم يعمل على توعيتها ...

«الانسان عالم غريب مستقل، عالم مترامي الاطراف سحيق الاغوار ولا متناهي الآفاق .. يحوي ما لا يخطر في بال العلماء ! عالم الباطن فيه، او العالم اللامنظور، اوسع من عالم الظاهر ويحوي اكثر مما يحويه هذا الاخير ! في الانسان اعمق مما يرى بواسطة المعدات الالكترونية المتطورة .. في الانسان ابعد مما يظن الطب انه توصل الى اكتشافه ... في الانسان اشمل مما يعتقد اي عالم او فيلسوف انه تعرف اليه .. وفي الانسان كيان غامض، ما زال خفياً عن ابصار الاكثرية الساحقة من البشر ! كيان عظيم يحوي طاقات هائلة هوالانسان. لكنه لم ينفتح عليها بعد ! طاقات قادرة على الانتقال عبر المكان، والتنقل عبر الزمان ... هذا هو الانسان، جسد وروح وبينهما عدة مكونات باطنية خفية تصل الروح بالجسد، او عدة ابعاد وعي في وجود واحد! لكنه قادر على الانطلاق في كل هذه الابعاد معاً، مزامنة !!!» (كتاب الايزوتيريك - رحلة في مجاهل الدماغ البشري) .

نعم، الحرية انسان، انسان يعي حقيقته الباطنية والظاهرية مزامنة، فيرتقي بذاته بقدر تحرره من الاخطاء التي يمارسها .. ويحلّق بابداعاته من خلال تفتيح طاقات الباطن الهاجعة في كيانه ... فهل اسمى من حرية تنشد الوعي الذاتي سبيلاً، وتتقصى الغوامض في الحياة ؟؟؟ وهل اعظم من سمو الفكر، واعمق وعياً من تشذيب النفس، وارفع من ابداعات الذات احساساً بالحرية ...؟!!! فهنا نرى الواقع يفيض منطقاً، والادراك يتفتق وعياً، والحكمة لا بد ان تجليه حقيقة ... حقيقة فهم الحرية بارتباطها بالذاتية .

ان الركيزة الاساس للتطور في الوعي من منظار علوم الايزوتيريك هي استبدال الصفات السلبية البشرية بالصفات الايجابية الانسانية، ولاشك ان مفهوم السلبيات لدى هذه العلوم يختلف تماماً عن المفهوم العام. فحتى العلوم التي تتطرق الى الانسان، كعلم الاجتماع وعلم النفس، لم تشر الى مثل هذا المفهوم العميق للسلبيات البشرية. فما هي علاقة السلبيات بالحرية الانسانية ؟!

من جهة اخرى، وفي اطار العلاقة القائمة بين الانسان والحرية، نشير الى ان العلم يقر ان في دماغ الانسان خلايا هاجعة لم تفعل بعد. تلك المجاهل الغافلة في اللاوعي، الكامنة المنتظرة اوان تفعيلها تقارب نسبتها التسعين في المئة (او اكثر) تقابلها نسبة عشرة في المئة (او اقل) مفعلة في دماغ الانسان الحالي. «ان نسبة خلايا الدماغ المتفتحة، تعكس مدى وعي الانسان، لا معرفته ! اذ ان الوعي لا يكتسب بمجرد امتلاك المعرفة، بل من خلال النمو الذاتي والخبرة الحياتية الايجابية على كل صعيد. .. وذلك يتم عبر الانفتاح الذهني، والتطور في التفكير والمعرفة، والمحبة والحكمة، والارادة، وسائر الصفات الانسانية (الايجابية) على حد سواء. وهذا ما يؤكد ان دماغ العلماء المتبحرين في علم ما الى حد اكتشاف الجديد ... لا يحوي اكثر من ١٥ الى ٢٠ في المئة من خلايا متفتحة. لان العلم لا يتساوى والوعي، بل الوعي هوالذي يحوي كل شيء ... من منطلق انه يجسد الخبرة، والتطبيق العملي الايجابي، والحكمة، الى جانب العلم والمعرفة !» (كتاب حوار في الايزوتيريك). تلك الخلايا غير المفعلة في الدماغ هي طاقات ابداع انسانية، تنطلق بالانسان الى تحقيق إنسانيته، لتتجلى الحرية بمعناها الاصيل ... فالحرية ما كان مداها الا احساساً داخلياً، توصلاً ذاتياً ومجهوداً فردياً يجري تطبيقه في شؤون الحياة كافة .

رُبَّ قائل «اصلح نفسك يصطلح العالم»، لذا فان الحرية تبدأ من الانسان نفسه، من اصلاح ذاته ليحقق الصلاح في مجتمعه.

ما من حرية الا حرية الوعي، وما من عبودية الى عبودية اللاوعي. فإن كان الظاهر - العَرَض يشير الى حرب الحرية ضد العبودية ، فالباطن - الجوهر يؤكد ان الانطلاقة المستقبلية، هي حرب الوعي ضد اللاوعي في الانسان نفسه ...! كما تشهد الظواهر حولنا .